

حياة مستشرق

قدم حاضرة دمشق في اواخر تشرين الثاني سنة ١٩٢٠ المستشرق الافرنسي الشهير (لوي ما سينيون) فطلب منه ان يتكلم بإلقاء محاضرة من محفوظه الواسع. فاجاب والقي في هه المحاضرات محاضرة انيقة ممتعة على محفل غاص بالعلماء والادباء والوجهاء في ٢٩ من الشهر المذكور بعد ان عرف به الحضور السيد محمد كرد علي وزير المعارف ، وحوصاً على ما في عقد التعريف والمحاضرة من فرائد الفرائد ادرجناهما كما يلي :

خطاب وزير المعارف

ياسادتي وياخواني

اتشرف الآن بان اقدم لكم صديقاً حميماً قديماً بل صديقاً حميماً قديماً للشرق الاسلامي الاستاذ الميسولوي ما سينيون احد اساتذة (كولييج دي فرانس) في باريز الرجل الذي اعرفه اليكم هر من علماء المشرقيات في بلاده تشعب بروح الغرب وروح الشرق فكان روحاً براقة شفافة. هوروح ويشتغل بالروحيات وهو بهامغرم . ولد في سنة ١٨٨٣ م بالقرب من باريز ولما ترعرع دخل في مدرسة لوي اغران ثم دخل كلية باريز وفي سنة ١٩٠١ رحل في طلب العلم الى الجزائر وترنس وسافر سنة ١٩٠٤ الى فاس ودرس بها احوال ذلك القطر وتعرف الى علماء المسلمين فيه وفي سنة ١٩٠٥ سافر الى الجزائر وفي سنة ١٩٠٥ - ١٩٠٧ سافر الى مصر بمهمة اثرية وفي سنة ١٩٠٧ - ١٩٠٨ سافر الى بغداد وهناك تعرف الى عالم العراق السيد محمود شكوي الالوسي الذي لقنه روح الدين واستفاد منه ومن ابن عمه السيد علي فواند جلي واكتشف قصر بني لحم المسمى بالسدير في الاخضر وذلك في منزل فضل بك الهدال غربي كربلاء ثم رجع منها بطريق سورية .

واقام في عام ١٩٠٩ - ١٩١٠ في القاهرة وقضى زمنا سنة ١٩٠٩ - ١٩١٢
١٩١٣ في الامتانة وفي سنة ١٩١٢ - ١٩١٣ اقام في القاهرة فدعته الجامعة المصرية الى تدريس تاريخ الفلسفة ، فالقى محاضرات ممتعة في تاريخ الاصطلاحات الفلسفية

دلت على علو كعبه وقد طبع عدد قليل من هذه المحاضرات .
وفي سنة ١٩١٤ رحل الى الجزائر وفي سنة ١٩١٥ - ١٩١٦ اقام مدة في حملة
جناق قلعة (الدردنيل) وحضر حروبها بنفسه شهراً ليعرف تأثير الحرب في
الارواح ، وان روح المرء لا تغفل لقاء مصالحة وطنه وفي سنة ١٩١٦ - ١٩١٧
رحل مع الجيش الافرنسي الى (ستروما) و (طبريان) و (مناستر) وفي
سنة ١٩١٧ رحل الى الحجاز والقاهرة والقدس وفي سنة ١٩١٨ - ١٩١٩ اقام
مدة في ربوع القدس وحلب ودمشق والاسانة ثم رجع الى باريس ليتولى القاء
محاضرات في (كولييج دي فرانس) المشهورة على حالة العالم الاسلامي بعد الحرب .
ومن تأليفه كتاب مواكش في القرن السادس عشر أخذاً من ليون الافريقي .
ومن كتبه كتاب البعثة الاثرية بين النوبين وهو في مجلدين وهذان الكتابان
كتبهما باللغة الافرنسية ونشر بالعربية مع ترجمة افرنسية كتاب الطواسين للحسين
ابن منصور الحلّاج وكتاب الامثال البغدادية للقاضي الطالقاني واه عدة أبحاث
ومقالات في المجلات العلمية الافرنسية مثل مجلة العالم الاسلامي الباريزية ومجلة
العلوم السياسية والمجلة الآسيوية وهو مؤازر في دائرة المعارف الاسلامية التي
تطبع في هولاندة باللغات الافرنسية والانكليزية والالمانية .
وقد فطر صاحبنا على الميل الى نبش آثار فلاسفة الاسلام ولا سيما علماء
التصوف المتقدمين منهم ويقصد من ذلك الوقوف على ما خطته أناملهم في الاخلاق
وهو الآن على أن يجيى بالطبع بعض كتب الفلاسفة المسلمين في هذا الشأن ولولا
الحرب لطبع كثيراً من أبحاثه وكتبه وقد اضطر أن يتركها نحو خمس سنين
في وظيفة رئيس (بوزباشي) في جيش الشرق وكان في كل عمل تولاه مثال
الوطني الافرنسي الواسع الصدر للعلوم القديمة والحديثة بعيداً عن التعصب والمحاباة
بالباطل ولذلك رجوته وألححت عليه أن يتحفنا بمحاضرة في هذا الهو يحضرها أهل
الفضل والادب في هذه العاصمة ليذكر لهم شيئاً من علمه وتجاربه والآن يتلو على
مسامعكم ما حضره :

ملتقى الالبيين

المحاضرة التي القاها المستشرق الافرنسي (لوي ماسينيون) في هه المحاضرات
بدرسة الحقوق العربية يوم ١٩ تشرين الثاني سنة ١٩٢٠ .
سادتي :

ان مدحي الذي سمعتموه من دولة الوزير هو من حسن ظنه بي وليتني اقدران
اتكلم في محاضرتي هذه بما يحقق ظن دواته . جئت دمشق لامكث فيها اياماً
قليلة وما كان قصدي ان ارجع من البلاد الشرقية بعد ان درست خمس عشرة
سنة علوم التمدن الاسلامي فيها .

موضوعي الملتقى الادبي بين الشرقي والغربي وخاصة بين الاسلام والنصرانية
وبالاخص بين سورية وفرنسا ولذا يجب ان ندقق هذا الملتقى وغاية قصدي ان
نزرع روح هذا الالتقاء في مدينة دمشق .

اولا : لندقق في اسباب الهجرة ، مهاجرتكم الى بلادنا ومهاجرتنا الى بلادكم .
لا أذكر الاسباب الاقتصادية لانها اسباب موقنة .

نعم اننا لانعيش بلا خبز ولكن المسألة اعلى وادوم اعني انها مسألة فكرية
انتم محتاجون الينا ونحن محتاجون اليكم .
قال التشعري في موشعاه :

« ايش علي من الناس وايش على الناس مني » .

ولكن بالنسبة لنا ولكم فانه يجب ان يتبادل الشرقي مع الغربي وبصورة
اوضح الافرنسي مع العربي السوري المنافع الحقيقية والفوائد المهمة .

ادخل في البحث عن اسباب سفر المهاجرين من الشرق للغرب : قيل ان
سبب هذا هو انحطاط رتبة العلوم في الشرق ولذا هاجر طلاب العلم منه الى الغرب .
ان كثيراً من السامعين سافروا الى الغرب لتحصيل فن الطب الذي هو لتداوي
الاجسام وقسم سافر لتحصيل العلوم الاجتماعية لاصلاح الامة ومداواتها
الاجتماعية . نعم ان اولئك كانوا افراداً ذهبوا ورجعوا بلا اختصاص باجتماعاتنا
الداخلية ولذا ارى من الواجب ان يكون بين طالب العلم الشرقي وطالب العلم

الغربي مبادلة اجتماعية فكرية وها انكم جثتمونا فوادى فبجشاكم افواجا .

ابداً في البحث عن مجمل تاريخ حركة المستشرقين في فرنسا .

ان اصل الاجتماعيات اللغة ، ولولا النطق ما تكونت الامم وان اول شعور المستشرقين الافرنسيين في اللغة العربية في النحو . وقد وجدنا خصائص في اللغات السامية لاسيا اللغة العربية فان فيها فضائل خاصة بها دون سواها . منها : الاصول الثلاثة في الكلمات اي ارجاع اي كلمة كانت الى ثلاثة احرف للاطلاع على معناها في المعجم . لكن هذه الخاصة لا توجد في اللغات الآرية فلا ترتب المعاجم فيها بقتضى اصول الكلمات بل ترتب كل كلمة كما تلفظ .

ثانياً امكان التعبير في اللغة الآرية عن تنوع الفكر الداخلي بتغيير جوهري باصول الافعال من غير لزوم لزيادة خارجية على ذلك الفعل . وليس اذال كذلك في اللغات الآرية اذ لا بد فيها من زيادة خارجية للتعبير عن تنوع الفكر واشكاله . اسمحوا لي أن ابين الفرق بين اللغات السامية والآرية من حيث الروحانية والجسائية فاقول : ان اللغات السامية روحانية . واللغات الآرية جسائية . وقد اقتصت اللغات السامية بالوحي . ربما سمعتم قول الفيلسوف (رنو) الافرنسي فهو متعصب للآرية ويقول هي افضل من اللغات السامية لان السامية محرومة من الفنون الجميلة الواسعة .

لا انكر قوله تماماً ولكن اقول : ان اللغات السامية ذات المنزلة الروحية (ولم نحظ بِنجاحة العبد لربه الواحد الا بعد دخول النصرانية في الآرية) وعلى كل فان مسألة اللغة ترجع الى الروح وقد قيل في القرآن الكريم (قل الروح من امر ربي) .

اذا دخلنا في المقابلة الاجتماعية بين الشرق والغرب نرى ان الفكر الشرقي متقدم على الفكر الغربي في تحليل مسألة توافق العلم مع الدين . وليس من الضروري ان اذكركم امثال ابي حيان التوحيدي وابن سينا والغزالي وابن رشد والفخر الرازي الذين نفتخرو بآثارهم فهم ارباب هذا التوافق . نعم انكم تركتم هؤلاء ونحن آخذون في البحث عنهم والتدقيق في آثارهم . تركتم واخذنا فأضعف واستفدنا لاننا نبحت عنهم كيف كانوا يدققون في المسائل .

اذ كرر لكم مسألة (الترجيح) وهي برهان من براهين وجود الله ذكرها السهروردي الحلبي واعترض عليه قوم بذلك وجل قصدي ان ابين لكم تأثيرها على مفكر ي الغرب وخاصة على فكرة (پاسكال) الفرنسوي في بحثه المشهور (بالمقامرة) ومعناه انه يرجح الوجود في الحشر على التلاشي كما قيل :

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا بعث في الاخرى فقلت اليكما
ان صح قولكما فلت بخاسر اوصح قولي فالحسارة عليكمما

ايها السادة : هذه فكرة مكتوبة من متكلميكم و كثير من مستشرقى الامم الغربية يدققون في منابع الشريعة الصحيحة لمعرفة انتساب هذه الفكرة واخيراً كانت لي مراسلة مع صديقي الاستاذ (سنوك) في كلية ليدن وكان بحثنا في رأي الغزالي في مسألة السريجية لان الغزالي رجل عظيم الهمة فنستفيد من التدقيق في مسألة افكاره . وهذا الاقتراح بين المبادئ المنطقية والاحكام الفقهية الذي يشير اليه الغزالي دليل على انه لا فائدة من البحث في العلوم الا بمراقبة نتائجها العملية . فالعالم يبدأ اولاً بمداواة نفسه بالترياق ثم يداوي الامة والاصلاحات الحقوقية لا بد لها من احترام في نفوس اولي الامر ومراقبة نتائجها العملية والا فلا ترجى فائدة منها للامة هذه نقطة الملتقى بين الاديين الغربي والشرقي .

لا يستفيد البعض من الآخر إلا بعد التفاهم وهناك درجات للتفاهم . ندقق أولاً في الكلمات ثم نرجع الى المعاني . ثانياً يجب أن نفقه المعاني بمقاصدها ، مثلاً في الآية (عينا يشرب بها عباد الله) فتجري نية الاخلاص في قلوبنا وأعضائنا لتمر الاعمال من التذكر الى الفهم ومنه الى التخلق باخلاق المخلصين من الاساتذة لتكون التربية واحدة . وهذا هدف التربية والعلوم . وهو أصل التضامن الاجتماعي كما جاء في الآية (لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد) .

اسمحو لي ان اذكر لكم بعض تجاربي الخاصة . أما من أسفاري في البلاد الاسلامية واما من تدريسي التاريخ واما من تجاربي في زمان الحرب اذكر اولاً بيتاً من ديوان الحماسة وهو :

ولا بد من شكوى الى ذي مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع

هنا يتأسس الملتقى بين انسانين واناس مختلفين ولا يمكن معرفة الرجل الا باستصحابه ولا يفهم جوهره الا عند نزول الشدائد .
 واذا رجعت الى مفكرتي التاريخية فاني ادقق الفكر في تكوين هذه الامة العظيمة الاسلامية، انظر للاسلاف من امتم واقول: كيف تأسست الامة الاسلامية! ان بعض المفكرين الذين يتظرون الى هذه المسألة سطحياً اي من الخارج يقولون ان العرب قد تغلبوا على هذه الاقطار الواسعة بقوتهم وبآلاتهم الحربية فخضعت لهم الاقوام . ولكن يجب ان نمنع النظر في منبع الحياة الاجتماعية في زمان تلك الفتوح فاقول انه اذا لم يكن هناك بينهم اشتراك في مبدأ صحيح فلا يمكن ان تتكون تلك الامة على هذا المقدار .

لا انسى تراجم مشاهير الاسلام وخاصة الحسن البصري الذي يعد من مشاهير رجال الامة الاسلامية واذكر انه ثارت ثورة في أيام الحجاج الثقفي في البصرة الخارج على ذلك الوالي الظالم . فقال الحسن رافضاً الاشتراك بالفتنة (ان النصيحة واجبة والخروج بالسلاح حرام) وضرب الناس المثل بالحسن انه رجل يتفوس بحصول السبل ويبقى مع بني قومه في الوادي بعد ذلك كما هو شأن رئيس السفينة عند الفرق وهذا دليل على سعة نطاق الفكر عندكم معشر العرب وقد كان السلف من أهل السنة متمسكين بهذه الصفة التي تشبه صفة الصحابي مع النبي (ﷺ) بمعنى انهم مرتبطون معه ارتباطاً اجتماعياً بوجه خاص . ولما كانت الضيافة اصلاً في تلك الصفة بين العرب العاربة وجب علي ان اذكر لكم هذه الفضيلة مبرهنات عليها بما شاهدته من نتائجها بنفسي .

لا ادخل في مشكلات الاحياء ويكفي ان ارجع بكم الى ذلك الفكر الاخلاقي المفرط في منهاج السالكين لابن قيم الجوزية ومن الواجب ان اذكر كتاب الرعاية لحقوق الله وهو للحارث بن اسد المحاسبي ومن الغريب ان هذا الكتاب لم يطبع وهو في دار الكتب في او كسفورد بانكلترا .

ان لكم فضائل اجتماعية لا تنكر عليكم وهي الرضى بقضاء الله والصبر على حكم الله والتسليم لامر الله وربما ادعى عدم فهم معنى هذه الحقيقة او الفضيلة الاجتماعية

الى قبول اي استبداد كان بكم وعلماؤكم ساكتون فقد فسر الحلاج التوكل بالضمود تحت موارد القضاء .

اما تجاربي الاجتماعية في الحرب ،ارجع بكم لتذكر المساعي التي بذلت في الحرب . كلنا يتمنى ان نرحع للازمنة الماضية ولكن هذا غير مأمون لان من الواجب على المؤرخ ان يفهم بنفسه ويفهم السامعين ان هناك ثمرات اجتماعية باقية من كل واقعة تقع ولكل مصيبة فائدة وقد استفدت من المصائب اكثر بما استفدته من المسرات . جرحنا فتوجعنا ثم ميزنا الالف من غيره واعددنا معدات تؤهلنا للحياة الجديدة السعيدة .

كانت في زمان الحرب العامة طلاب المدارس في فرنسا تتوافد زرافات الى الحنادق ووقف العلماء والشيوخ امام العدو وصرنا متحدثين مع طبقة العامة بتأثير المصيبة المشتركة ففهم من الاجتماعات أنه لا منفعة صحيحة الا من الافة ولا ألفة الا من طريق المحن والمصائب .

انذكر الآن من ساعدوني من اخوانكم المسلمين ولن أنسى أبداً الشيخ محمود الالوسي وابن عمه الحاج علي فهما ساعداني مساعدات اخلاقية مهمة وافهماني اهمية ملتقى الاديين الشرقي والغربي .

وقد اجتمعت بالشيخ طاهر الجزائري والشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقيين واكتسبت منها فوائد مهمة وكنت اريد ان اشكرهما لديكم لولا انها توفيتا وخفنا امثالكم في الامة السورية فاقدتم ذلك الشكر لكم واني اسعى لمعرفة السبل لتأليف اجزاء هذه الامة الصحيحة المعتبرة . وفي الحام اقول ان تأليف القلوب لا يكون بطريق سياسي كما يزعم وانما يكون بطريق الصديقية بين الاصدقاء وهذا هو ملتقى الاديين وهل جزاء الاحسان الا الاحسان .